الليتورجيا الأرثوذكسية: لاهوتها وروحانيتها، الجزء الثاني

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

في اللّيتورجيا، تصعد الكنيسة إلى السّماء. لذلك عندما تعود إلى العالم، بعد هذا الصّعود، تعود عاكسةً نور وفرح الملكوت. فتغدو شاهدةً للملكوت وسط هذا العالم القلق والمضطرب.

من هنا تخاطب النّصوص اللّيتورجيّة الأرثوذكسيّة الله أوّلاً، مستذكرةً ومستعيدةً التدبير الخلاصي الذي عمله الله من أجل الإنسان وخلاصه. فعلى سبيل المثال، تُختم جميع الصّلوات الأرثوذكسيّة بالشكل التّالي: "أيّها المسيح، إلهنا الحقيقيّ يا من ... لأجل خلاصنا...". ففي الفترة الفصحيّة نناديه "يا من قام من بين الأموات، لأجل خلاصنا،" وفي فترة الميلاد "يا من وُلد في مغارة من البتول لأجل خلاصنا،" وفي الظّهور الإلهيّ "يا من اعتمد من يوحنّا في الأردّنّ لأجل خلاصنا،" وفي التّجليّ " يا من تجلّى على جبل ثابور، أمام رسله القدّيسين لأجل خلاصنا،" وفي العنصرة "يا من أرسل الرّوح الكلّيّ قدسه على تلاميذه القدّيسين لأجل خلاصنا." إلخ.

يُعدّ الخلاص الّذي حققّه المسيح في تجسّده، وموته، وقيامته، عنصراً أساسياً في اللّيتورجيا، لأنّه الأساس والغاية من مسيحيّة المسيحيّ، غاية المسيحيّ هي أن يَخْلُص، إنّه مسيحيّ أوّلاً، ساعٍ إلى الخلاص أوّلاً، ومن ثّم هو طبيب أو مهندس أو تاجر أو موظّف...إلخ.

***

ولأنّ الخلاص تحقّق بتجسّد المسيح، وما عمله من أجلنا، فإنّ اللّيتورجيا توزّعُ على السّنة، كلّ الأفعال الّتي عملها المسيح من أجلنا، من بشارة الملاك لوالدة الإله بحبلها بالمسيح، إلى حلول الرّوح القدس على التّلاميذ يوم العنصرة. فتتوزّع الأعياد من البشارة إلى الصّلب والقيامة، إلى الصّعود فالعنصرة، فالتّجليّ، إلى الميلاد والختان، والمعموديّة والدّخول إلى الهيكل، ولا تنسى الحوادث المختصّة بوالدة الإله كميلادها، وانتقالها، ودخولها هي الأخرى إلى الهيكل. هذا يُخرج المسيحيّ من روتين الحياة اليومّية، ويساهم في انشداده إلى هدفه الأساسيّ: الخلاص، ويجعله في ترقّب دائم للملكوت، بانتقاله من عيد إلى آخر، حتّى يصل إلى عيد الأعياد، وموسم المواسم، أعني الفصح.

وفي كلّ عيد، نقرأ ونرتّل في خدمتي الغروب والسَحَر، بالإضافة إلى القدّاس الإلهيّ، معنى العيد ولاهوته وروايته والنّصوص المتعلّقة به، في العهدين القديم والجديد، هذا كلّه يتمّ قراءة وترتيلاً وزياحاً ورفعاً لأيقونة العيد وتقبيلاً لها وخبزاً يُكسر، ويشترك فيه جميع الحاضرين حتّى نصل إلى الاشتراك الكامل في كأس جسد المسيح ودمه، فيعيش المؤمن الحدث الّذي تمّ من أجله، ويشترك بدوره في تحقيقه، وتفعيله في حياته الخاصّة، وفي حياة جماعته المؤمنة. وتصير اللّيتورجيا سينرجية، أي عملاً مشتركاً، مؤازرة مستمرّة بين المسيح وبيننا، نعيش فيها إيقاعاً ذا ميزانين: ميزان يقظة إيماننا، وميزان حدث الإيمان.

لذا، أيضاً، تركّز النّصوص في كلّ المناسبات، على أنّ ما حدث، لم يحدث في الماضي، بل اليوم، لأنّنا نحياه "اليوم وهنا." فنرتّل دونما شبع: "اليوم عُلِّق على خشبة، اليوم يوم القيامة، اليوم يولد من البتول، إلخ..."

ما تمّ لم يعد من الماضي، لأنّه حاضر، "ما من جديد بعد التّجسّد "يقول القدّيس يوحنا الدمشقي. ففي الاحتفال اللّيتورجي، تتذكر الكّنيسة أحداث الخلاص الّتي صنعها الله في التّاريخ، والّتي اكتمل تحقيقها في صلب المسيح وقيامته، إلّا أنّ هذا الحدث الفصحيّ، الذي حصل في التاريخ مرّة واحدة، قد أصبح الآن معاصراً لكلّ لحظة من حياتنا. فلأن المسيح قام من بين الأموات، اخترق جدار الزّمن المائت. فالمقصود إذاً تذكار من نوع جديد تماماً، فنحن من يتذكّر، إلاّ أنّ الحقيقة التي نتذكرها، لم تعد من الماضي، بل هي حاضرة. وهكذا تصبح ذاكرة الكنيسة حضوراً حيّاً لفعل الحدث الخلاصي. هذه هي واقعية أحداث الليتورجيا.

***

إلى ذلك تركّز النصوص، على لاهوت الحدث، والعقيدة الإيمانّية المتعلّقة به، فلا يغيب عنها لاهوت المسيح عند صلبه، ولا ناسوته القيامي المتجلّي عند قيامته وصعوده، وتشدّد على طبيعته الإلهيّة والإنسانيّة في ذكرى أيّ حدث نعيّد له، ففي خدمة الميلاد، على سبيل المثال، نذكر تنازل الله، ووعده القديم، واتّحاد الطبيعتين، وبتوليّة والدته بالجسد.....الخ. وفي خدمة القيامة نذكر: نزول المسيح إلى الجحيم، وتحطيمه مملكة الشيّطان، ودوسه الموت، وتحرير الإنسان من قوى الشّرّ، وقيامة الرّبّ بجسد حقيقيّ لكنه ممجّد (قياميّ)، الخ.

الليتورجيا الأرثوذكسيّة عقائديّة الطّابع، ثالوثيّة بامتياز، نجد في ليتورجيّا عيد الظّهور الإلهيّ تشديداً رئيسيّاً على الثّالوث القدّوس، وفي ليتورجيا العنصرة وصف دقيق للأقنوم الثالث الذي هو الروح القدس، دون إهمال أقنومي الآب والابن، وعلاقته بهما.

من مزايا الليتورجيا، أنها تحفظ الإيمان والعقيدة عند المصلّي دون أن يأخذ دروساً اختصاصيّة في العقيدة. ولا يمكن للأرثوذكسي المصلّي أن يغلّب النزعة البشرية على الروحية أبداً، بفضل ليتورجيّة كنيسته التي تشدّه إلى فوق. يقول المثل الرّوحيّ عند الأرثوذكس: أنّ اللّاهوتيّ هو الذي يصلّي.

***

ولأن ما حدث، حدث لأجل خلاصنا، عبر عودتنا إلى الملكوت الذي خُلقنا أساساً لنعيش فيه، وعبر توجّهنا ثانية إلى مثالنا الأصليّ، لتكتمل صورتنا فيه، ونتّحد معه، فإن شركة القديسين عامل فعّال في تحقيق هذا الهدف، فإنّ اللّيتورجيا الأرثوذكسيّة، تهتمّ كثيراً بالقدّيسين، نماذج المسيحيّ الحقيقيّ، وقدوته، فتنشر تذكاراتهم على أيام السنة، ويذكرهم المؤمنون بأسمائهم، ويعيّد من يحمل اسم القديس المحتفَل به، ويعيدون قراءة أهمّ ما في سيرهم، ويتأمّلون بها في النصوص الخدم المختصّة بهم يومياً.

في الكنيسة الأرثوذكسية مجلّدات ضخمة لكتاب يدعى "الميناون" أو "اليوميّ،" الموزّع على شهور السنة يوماً فيوماً. يحوي هذا الكتاب نصوصاً صلاتّية، تتكلّم عن القديسين المقام تذكارهم يومياً، متأمّلة بسيرتهم، ومشدّدة على حبّهم وأمانتهم للمسيح، وعلى توبتهم. للشهداء ترانيم خاصة، ولرؤساء الكهنة أخرى مختلفة، وهكذا للأبرار والمعلّمين ورؤساء الملائكة... يحفظها المؤمنون، ويرتل كلّ منهم لقديسه (قديستها) ترنيمته الخاصة يومياً.

يصير القدّيس باللّيتورجيا صديقاً للمؤمن، وأليفاً له، ومشجّعاً إيّاه على السّير في درب المسيح والاقتداء به، هذه الإلفة تخلق إحساساً قوياً بشركة المؤمنين، التي لا يعيقها موت أو بعد جغرافّي، فيغدو القديس قريباً إلى درجة الحضور الحقيقيّ، ويطلب المؤمن صلاته، ويلجأ إليه، كما يطلب صلاة أخيه الحاضر بالجسد معه في الكنيسة.

(للمقال صلة)